حرب الكلمات

إعداد / مركز المعلومات

البروفيسور ياسر سليمان –أستاذ اللغة العربية والدراسات الشرق أوسطية ومدير معهد أدنبره بأسكتلندا للدراسات المتقدمة عن العالم العربي والإسلام– الذي يقدم من خلال هذا الكتاب مساهمة غنية في حقل الدراسات اللغوية واللسانية وأثرها وتأثرها بالمناخ الصراعي والسياسي الذي تشتغل فيه.

يتكون الكتاب من ٢٧٠ صفحة ، وأشرفت على طباعته ونشره دار كامبردج يونيفرستي برس ، وتتلخص الرسالة التي يريد المؤلف إيصالها الى قرائه في يقينه بحقيقة أن اللغة عندما تكون في بيئة غير محايدة وتتناقض مع لغة أخرى تصبح أكثر بكثير من أداة اتصال يومي، وتتحول إلى تعبيرات مركبة لها مدلولات عميقة منعكسة عن قلب الصراع الدائر بين الأطراف المعنية.

وفي الشرق الأوسط وخاصة في الحالات الدراسية التي ركز عليها كتاب سليمان –أي في فلسطين وإسرائيل والأردن– مع إطلالات على سوريا ولبنان, تصبح اللغة سلاحاً في الصراع ووعاءً تترسخ فيه الهوية وتدافع عن نفسها ,بل تصبح هي ذاتها كلغة عنواناً من عناوين الهوية.

كما تصبح فضاءً ثقافياً يفرض تحديات شبه صارمة بحيث تعمل اللغة على تعريف الفرد لناحية الانتماء الوطني إلى جماعته، خاصة في سياق الصراع مع جماعة أخرى..

ويتناول الكتاب أربعة موضوعات رئيسية يفرد لكل منها فصلاً خاصاً، كما تتداخل التعليقات والتحليلات في الفصول المختلفة وكذا في المقدمة وخاتمة الكتاب لتدعم بعضها بعضاً.

الموضوع الأول هو اللغة والقوة والصراع في الشرق الأوسط، والثاني هو اصطدام اللغات المحلية والدارجة باللغة الفصحى, والثالث هو اصطدام اللهجات العامية ببعضها البعض "حالة الأردن"، والرابع هو اصطدام اللغات ببعضها.

اللغة والصراع في فلسطين وإسرائيل

في الموضوع الأول الخاص بعلاقة اللغة بالقوة والصراع في الشرق الأوسط ,يضع المؤلف القواعد والمناهج الأساسية التي أعتمد عليها في مقاربته لموضوعات الكتاب.

وهو يوزعها إلى ثلاثة مسارات: أولها اللغة ولهجاتها المحلية وينعكس ذلك بالتفصيل في الفصل الخاص بالصراع بين اللغة العربية الفصحى واللهجات الدارجة، وثانيها اللهجات المحلية التابعة للعربية الفصحى والمتصارعة في فضاء جغرافي محدد، وثالثها احتكاك أو اصطراع لغتين أو أكثر.

ويتناول سليمان العديد من الأمثلة لتوضيح هذه المسارات الثلاثة وتمييزها. ومن الأمثلة والسرديات الممتعة في هذا الفصل التجربة الشخصية للمؤلف عند زيارته موطنه الأصلي فلسطين بعد إقامة طويلة في الغرب، وكيفية استخدامه للغة الإنجليزية هو وعائلته في التخاطب مع الجنود الإسرائيليين على الحواجز الأمنية. فرغم أن أولئك الجنود يتنبؤون بأنه فلسطيني سواء من لون بشرته أو اسمه الواضح في جواز السفر البريطاني، فإنه يصر على أن لا يتحدث معهم إلا بالإنجليزية التي لا يتقنونها.

وفي سياق وضع صراعي على مستوى محدود وعبر الإنجليزية فإنه يؤثر في ميزان القوى الصغير بينه كطرف ضعيف وبينهم كطرف قوي ,حيث يستخدم مكانة الإنجليزية كلغة عالمية محترمة هو يتقنها بينما هم يتلعثمون فيها.

لكن الأهم من ذلك أن اللغة في الوضع الصراعي تستخدم كالحدود: تفصل بين البشر وتحدد معنى الانتماء إلى المجموعات الإثنية والقومية، إذ لا يمكن الاعتراف بانتماء عنصر دخيل إلى الفضاء الإثني أو القومي المحدد من دون اشتراطات هوياتية تدخل اللغة في قلب تكوينها.

وإضافة إلى ذلك فإن اللغة هي محل صراع بين القديم والحديث، بين التراث والحداثة، فهي أحد أهم ميادين الصراع إن لم تكن الميدان الأهم، وهو ما تجلى في الثقافة العربية على مدار القرنين الماضيين.

فدعاة الحداثة والعلمنة كان من موضوعات التحديث لديهم تحديث وتطوير اللغة، وفي المقابل كان دعاة المحافظة على الأصالة يدافعون عن اللغة كما هي ويرفضون الأفكار الجديدة الداعية إلى تطويرها وتحديثها.

وهكذا لا تتجاوز اللغة وظيفة الدور الاتصالي والأداتي فحسب ,بل تصبح مشحونة بالرموز والصور ومحملة بالقضايا ومرآة عاكسة للصراعات في المجتمع وحوله..

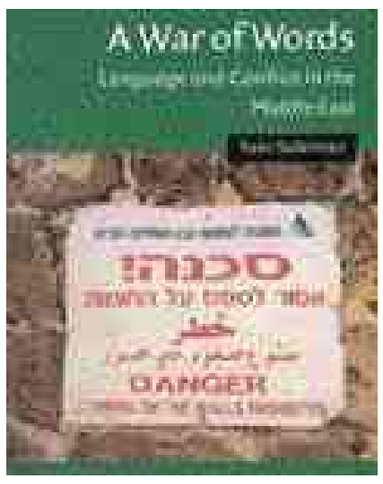

الصراع بين الفصحى والعامية

في موضوع الصراع بين الفصحى واللهجات العامية يركز سليمان على البعد الاجتماعي للغة التي هي في موضع صراع، ويتعمق في جوانب المعركة الشديدة التي قامت ولا تزال قائمة بين معسكر المطالبين بتحديث اللغة العربية ومعسكر المدافعين عن شكلها التقليدي.

وأهمية هذا الصراع كما يشير المؤلف تتجاوز بكثير مسألة تحديث اللغة التي قد تبدو أمراً طبيعياً بل ومطلوباً ويصعب تصور نشوء أي خلاف حاد عليه.

فهنا وعندما يتعلق الأمر باللغة العربية الفصحى يصبح أمر المناداة بتحديثها تحدياً مطروحاً يمس قضايا حساسة رآها المعسكر المضاد واقعة في قلب الصراع على الهوية العربية، والدفاع عن الإسلام، بل والدفاع عن الاستقلال الوطني.

فقد ارتبطت دعوة تحديث اللغة العربية بالاستعمار، وكانت تجلب معها استدعاءات وظلالا لتجارب شبيهة خاصة التجربة التركية التي لفظت الحرف العربي وتبنت الحرف اللاتيني، لهذا كانت المقاومة لها شديدة.

وظيفة اللغة لاتتجاوز الدور الاتصالي والأداتي فحسب، بل تصبح مشحونة بالرموز والصور ومحملة بالقضايا ومرآة عاكسة للصراعات في المجتمع وحوله

لكن ماذا كانت تتضمن الدعوة إلى تحديث اللغة؟ وماذا أراد التحديثيون؟

يفرق سليمان بين فريقين من التحديثين: الأول راديكالي والآخر معتدل. الراديكاليون طالبوا باعتماد اللهجات المحلية عوضا عن الفصحى ,والكتابة بتلك اللهجات واعتمادها كلغات رسمية، والبعض منهم طالب بالتخلي عن الحرف العربي وتبني الحرف اللاتيني باعتبار أن ذلك سيقرب العرب من أوروبا والحضارة الغربية ,كما سيسهل من تعلم العربية على غير الناطقين بها، كما طالبوا بتغيير قواعد النحو أو إلغائها نظراً لصعوبتها والإعاقة التي تضعها في وجه تقدم العربية.

التحديثيون المعتدلون لم يصلوا إلى تلك المطالبات الراديكالية ,وإنما توقفوا عند المطالبة بتعديل قواعد النحو والكتابة,وإدماج اللهجات المحلية في اللغة الفصحى أو الوصول إلى لغة وسيطة بين اللغتين.

لكن ما يلفت الانتباه في قراءة سليمان للسجال المحتدم بين دعاة تحديث اللغة والمدافعين عنها كما يصفهم المؤلف هو الإدانة المستبطنة للفريق الثاني بشكل غير مباشر رغم أن المؤلف لا يتخذ موقفاً مؤيدا للفريق الأول، وربما كان ثمة حاجة إلى تضمين فريق ثالث وسطي كان من دعاة التطوير المتدرج للغة لكن بما يحفظ هويتها وما يتناسب مع شخصيتها وعلائقها بالثقافة والتراث والدين وسوى ذلك..

صدام اللهجات

في الموضوع الثالث الذي يفرد له سليمان فصلاً مطولاً، هناك استعراض لحالة اصطراع اللهجات المحلية ضد بعضها البعض وليس ضد اللغة الفصحى.

ويأخذ المؤلف حالة الأردن مثالاً مهما حيث يعيش هناك أردنيون من شرق الأردن وأردنيون من أصول فلسطينية. وهنا وعلى خلفية العلاقات السياسية المتوترة التي هيكلت طبيعة العلاقة بين الفئتين خلال العقود القليلة الماضية، فإن اللغة المحلية أصبح لها دور في اللاوعي الجمعي يتناغم مع الموقف والبيئة السياسية العامة.

فغالبية الفلسطينيين –خاصة أولئك الذين هم من أصول فلاحية– ينطقون على سبيل المثال حرف القاف مخففاً أي: كاف، في حين ينطقه الشرق أردنيون قافاً متخمة مثل لفظة الجيم المصرية. وقد غدا النطق بهذا الحرف وكأنه مميز للهوية الإثنية والسياسية، فمن ينطقه كافاً فهو أردني من أصل فلسطيني ومن ينطقه قافاً فهو أردني أصيل.

ويتعدى الأمر ذلك إلى مسائل أكثر تعقيداً، فكما يلاحظ سليمان هناك تبدل وتغير في اعتماد اللهجة المحلية المعينة يعكس رغبة المتكلم في الانتساب إلى مجموعة معينة أو انتحال صفة هوياتية أخرى.

فالأردني من أصل فلسطيني إن أراد تأكيد أردنيته في موقف ما فإنه يتبنى لهجة محلية أردنية، وهو نفسه قد يعود إلى لهجته الفلسطينية في موقف آخر ,وهكذا تصبح كل لهجة وكأنها تؤدي وظيفة ظرفية ما ولها تموضع اجتماعي ثقافي سياسي محدد.

ومن جانب آخر ينتقد سليمان النموذج التحليلي المشتهر في قراءة اللهجات على أساس جندري "نوع الجنس" ,أي اختلاف اللهجة تبعاً للذكورة والأنوثة، فمثلاً يُلفظ حرف القاف المذكور أعلاه في الشرق من قبل الإناث بصوت الهمزة مقطوعة أو ممدودة "قمر تُلفظ أمر، وقالب تُلفظ ألب"، وفي بلدان شمال أفريقيا تلفظ الإناث حرف الراء في الفرنسي بصوت الغين – وهو لهجة سكان باريس– بينما يلفظ الذكور نفس الحرف بصوته المعروف، متجنبين الاستخدام الأنثوي له.

ويرى أن هذا النموذج محدود في قدرته التفسيرية ولا يقدم تفسيرات شاملة للاستخدامات المتنوعة للهجات المحلية.

اللغة في الصراع العربي الإسرائيلي

في الموضوع الرابع والأخير يتوسع سليمان في تحليل وضع اللغة العربية في الصراع على فلسطين، وهنا يعود إلى بدايات المشروع الصهيوني واعتماد اللغة العبرية وإقحامها في قلب المعركة ضد اللغة العربية.

فبعيد إنشاء الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ كان الاهتمام بالعبرية كلغة رسمية للدولة الوليدة مركزياً باعتبارها إحدى أعمدة الهوية الإسرائيلية المصنعة. وبالتوازي مع تخليق لغة جماعية تتوافق عليها طوائف وجماعات اليهود القادمين من بقاع مختلفة من العالم، كان لا بد من طمس اللغة الأصلية ودحرها وتهميشها إلى أبعد مدى.

ويحفل الكتاب بصور تبين كيف كان الوضع المركزي للغة العربية إلى وقت قريب جداً من قيام دولة إسرائيل، أي أثناء الانتداب البريطاني، وكيف كانت علامات ولافتات الطرق والأماكن العامة تُكتب بالإنجليزية أولاً ثم بالعربية وأخيراً بالعبرية. أما بعد قيام إسرائيل فقد أصبحت العبرية هي الأولى تليها الإنجليزية وفي الأخير تأتي العربية.

لكن الأهم من ذلك أن مئات القرى العربية تم محو أسمائها العربية وتسميتها بأسماء عبرية عوضا عن ذلك، وبذلك توازى التطهير الديمغرافي الذي قامت به الحركة الصهيونية عن طريق القوة العسكرية مع تطهير لغوي قامت به ماكينة الثقافة واللغة العبرية الدخيلة.

الحكمة من تحصين الأطفال ضد شلل الاطفال

» الصحة تاج على رؤوس الاصحاء « حقيقة ليست مغيبة ، الكل يعلمها وحكمة الكل يدرك معانيها اما على المدى القريب او البعيد ؛ وواقع الحال في عالم اثقلته الامراض الخطيرة يعزز فيه العلماء والمختصون اهمية الاخذ بهذه الحكمة الساطعة .

ولعل تحصين الاطفال دون العام من العمر ضد امراض الطفولة الثمانية القاتلة والتي من بينها شلل الاطفال، كذلك تحصين الفئة العمرية دون سن الخامسة في حملات وجولات التطعيم ضد داء الشلل ، يحمل الشيء من هذه الحكمة البليغة المعنى والاثر ، فهو احدى مقومات الصحة الرامية الى منع تلقي فلذات الاكباد لعدوى الامراض القاتلة التي اذا اتت عليهم اوقعت بهم الاذى وخلفت مآسي وعاثت في اجسادهم الخراب والدمار مخلفة تشوهات واعاقات تلازمهم مدى الحياة ، هذا اذا سلموا من الموت اصلاً جراء سطوتها وشدة ما تخلفه من اضرار خطيرة على اجسادهم الغضة الصغيرة التي لا تقوى على تحمل بشاعة امراض الطفولة .

واذ بنا على اعتاب جولة سابعة من الحملة الوطنية الموسعة ضد شلل الاطفال (٢٥ – ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٥م) سنفسح المجال للحديث عن وباء انتشاره والسيطرة عليه وبيان خطر الشائعات على واقع ومستقبل اطفالنا والسؤال الذي يطرح نفسه .. ما الذي يمنع او يؤخر بعض الآباء والامهات عن تحصين أطفالهم بجرعات التحصين الروتيني ، وكذا بلقاح شلل الاطفال اثناء الحملات طالما وان اللقاح متوفر في كافة مراكز التحصين وان الذين يحصنون به من الاطفال سينالون مناعة دائمة كفيلة بمنع انتشار المرض والقضاء عليه نهائياً وقطع خط عودته وتفشيه مجدداً .

خلفية انتشار المرض

ما كان لفيروس الشلل العام الماضي من انتشار في نيجيريا عائد لاسباب سياسية وشائعات استخدمت ووظفت لاغراض غير صحيحة ، فالخلاف السياسي بين الحكومة وبين مناطق معينة في نيجيريا ادى بأصحاب الرأي واصحاب القرار والتأثير الى جعل الناس يمتنعون عن تحصين اطفالهم ، وكانت النتيجة انتشار شلل الاطفال بشكل واسع وخطير ، ما دفع بالمدير الاقليمي لمنظمة الصحة العالمية الدكتور / حسين عبدالرزاق الجزائري إلى ان بعث برسالة الى اليمن والى السودان وبقية الدول الاخرى في المنطقة والتي يُخشى من عودة المرض اليها ، ذكر فيها ان نسبة التغطية طالما وانها ليست عالية جداً ، فان عودة شلل الاطفال مرة ثانية ليس ببعيد ، ولم تكن كمية اللقاح عالمياً تكفي آنذاك بعد ما انتشر الوباء في السودان لتغطية تنفيذ حملة شاملة في اليمن ، لذا تأخرت الحملة ، وبالتالي ظهرت حالات اصابة جديدة بشلل الاطفال قبل بدء تلك الحملة، ولو كانت نسبة التغطية بالتحصين الروتيني عالية لما حدثت هذه المشكلة .

انهاء الوباء

قبل ان يعاود ظهور فيروس شلل الاطفال في البلاد مجدداً كانت وزارة الصحة العالمية والسكان قد تمكنت من انهاء هذا الفيروس لثلاث سنوات وبضع شهور اخرى ، فلم تشهد خلالها أية اصابة بالمرض على الاطلاق ولو حالة واحدة .

فمرور ثلاث سنوات على أي بلد دون ظهور حالات جديدة لشلل الاطفال من منظور منظمة الصحة العالمية فيه دلالة على استئصال شلل الاطفال في البلد الذي ينطبق عليه هذا الشرط غير ان هذا لا يمنع دخول حالات من مكان آخر او من بلد آخر اذا لم تكن نسبة التغطية الشاملة بالتطعيم الروتيني المستمر ضد امراض الطفولة القاتلة عالية جداً ؟

فلو طعم (٨٠٪ – ٩٠٪) من الاطفال ، سيكون بالمقابل (٢٠٪ – ١٠٪) ممن لم يشملهم التطعيم ، هؤلاء في السنة التالية اذا ما ثبتت التغطية الجديدة عند الحد ذاته سينضمون الى غير المطعمين الجدد ليشكلوا معاً نسبة تصل تقريباً الى (٤٠٪) او (٢٠٪) .. بمعنى انه خلال ثلاث الى اربع سنوات سيكون هناك عدد كافي من الاطفال معرضين لامراض الطفولة بما فيها مرض شلل الاطفال .

وهذا ما حصل بالفعل ، فنسبة التغطية بالتطعيم الروتيني المعتاد في اليمن لم ترقى الى النسبة المرتفعة المطلوبة ما هيأ بالفعل الظروف المناسبة لظهور فيروس الشلل ، وعلى نطاق واسع ساعد على انتشار حالات الاصابة بين الاطفال بهذا الفيروس الآتي اساساً من نيجيريا ، ثم وصل الى تشاد ومنها الى السودان ومن ثم دخل اليمن في صورة وبائية مريعة .

وفي تلك الاثناء انتقل ايضاً من السودان الى السعودية ، حيث وجدت بالفعل حالتان لشلل الاطفال في السعودية ولم تثر قلقاً واسعاً لان نسبة التطعيم الروتيني فيها عالية جداً ، وهذا بدوره عمل على الحد من اتخاذ امراض الشكل الوبائي الذي عهدناه في بلادنا ، انما جرى التعامل بعد التعرف على وجود حالتي اصابة بتطعيم الاطفال المحيطين بالمنطقة التي ظهر فيها المرض ، وبالتالي انتهت ببساطة المشكلة هناك .

ومع كل ما كان من انتشار لحالات شلل الاطفال في البلاد بدء في محافظة الحديدة ثم في كثير من محافظات الجمهورية ، الا ان الجهود المتواصلة والمكثفة لوزارة الصحة العامة والسكان بمساندة من منظمة الصحة العالمية ومنظمة اليونسيف ، وعبر تنفيذها المتتابع لجولات وحملات تحصين موسعة في عموم المحافظات ، مكن البلاد بالفعل من الخروج من هذه المحنة العظيمة وانهاء هذا الوباء في اقرب واقصر وقت ممكن .

فالمعروف عن الوباء وفق معايير منظمة الصحة العالمية انه ينتهي بالعمل الجاد في ثلاثمائة يوم ، في حين انتهى من اليمن في غضون مائة وخمسين يوماً ، وهي نصف المدة المتعارف عليها دولياً وتعكس الجهود المضاعفة التي بذلت لفرض السيطرة والقضاء على الوباء .

ومع كل ما تحقق فان فرق التحصين مع الاسف تواجه صداً واصراراً على الرفض من وقت لآخر من بعض الآباء والامهات لتطعيم ابنائهم اثناء جولات حملة التحصين الوطنية الموسعة الروتينية ضد امراض الطفولة القاتلة ، غير مدركين ان الرفض هذا نتيجته وخيمة تبقي الطفل او مجموعة الاطفال المحرومين من التطعيم عرضة للاصابة بأي من امراض الطفولة التي يمكن الوقاية منها بالتطعيم حتى ان حالة واحدة تكفي لنقل العدوى بين بقية الاطفال غير المحصنين .

لا صحة للشائعات

من ضمن ما يتردد من شائعات تؤثر سلباً على التحصين الروتيني ، بل والمسؤولة اصلاً عن انتشار الاصابة بشلل الاطفال في البلاد ما يشاع من ان اللقاح هو من يصيب الطفل بالشلل او انه يسبب العقم وانه معمول في دول اجنبية لها اغراض تدميرية .. الخ ، والواقع ان اللقاح هو ذات الذي يستعمل في جميع انحاء العالم ولم يخص لليمن ولا لأي دول اخرى عربية او اسلامية .

والآخذين بالرفض من ناحية دينية اقول لهم صحيح ان العالم اذا اخطأ فله اجر ، الا ان عندنا امر في القرآن الكريم واضح وصريح ، يقول المولى عز وجل : » فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون « ، واهل الذكر في هذا هم الاطباء ، فالطبيب المسلم الثقة هو من يؤخذ بعلمه لاصدار فتوى في هذه الامور ، ولو افتى الشيخ وجب عليه ان يسأل الطبيب .

واساساً كل ما سبق من فتاوى في التاريخ الاسلامي للحضارة الاسلامية في المسائل الطبية ، بنيت على آراء الاطباء .. في ذلك الوقت .

اما من يستشهد بفتاوى الشيخ / بن باز / رحمه الله وهو من السعودية ، فالمعروف ان السعودية تطعم الاطفال وان نسبة التغطية بجرعات التحصين الروتيني فيها جداً عالية ، فكيف اذن يزاود بهذا الامر ، وعلى من ؟

التحصين .. لا بديل

الكل يعرف ان الاطفال هم فلذات الاكباد ، ولا مكان للفشل في حماية اطفالنا ، فهم المستقبل ولابد لنا من بذل كل جهد ممكن من اجلهم وعلى الآباء والامهات ان يطعموا اطفالهم تحت سن العام بجرعات التحصين الروتيني المعتاد وان يلتزموا بمواعيده المحددة في الكرت الخاص بالجرعات : كذلك يلزم تطعيم جميع الاطفال دون الخمسة اعوام ، ايام جولات وحملات التحصين ضد شلل الاطفال ، فهذه مسؤولية والتقصير فيها معناه ارتفاع نسبة وفيات الاطفال في بلادنا وتزايد عدد حالات الاعاقات والتشوهات وتردي اوضاع الصحة بشكل سيء وخطير .

ونقول للآباء والامهات اذا انتم اهملتم تطعيم ابنائكم فأنتم لاهمالكم هذا محاسبون امام الله سبحانه وتعالى لانكم تضيعون الامانة التي وضعها بين ايديكم لو اصيبوا بأذى جراء هذا الاهمال بدلاً من ان تصونوها وتحرصوا عليها ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيمن يسلم من يعول الى الضياع : » كفى بالمرء اثماً ان يضيع من يعول « .

في الختام .. نقول لكل من يمنع طفله من التحصين بأنه بهذا التصرف خاسر لا محالة ومقصر في احدى الواجبات الرئيسة الملقاة على عاتقه .. انها مسؤولية سيوقن بها عاجلاً ام آجلاً كل من اهدرها ، ولن تنكرها ضمائر من اصيب اطفاله بمرض شلل الاطفال .

فكفانا ، كفانا انقياداً وراء شائعات هي في حقيقتها محض افتراءات جائرة غرضها النيل من حاضر ومستقبل اطفالنا وتبديد الآمال الواعدة لهم بالخير ودوام العافية .

المركز الوطني للتثقيف والاعلام الصحي والسكاني في وزارة الصحة العامة والسكان

ضجيج الطوائف.. وقت آخر للتسامح

قال رئيس الوزراء الكويتي الشيخ صباح الاحمد تعليقا على اعمال «الملتقى الأول للوقف الجعفري»، الذي تم في الكويت، أخيرا، ودعيت إليه رموز شيعية عالمية واقليمية، إن «لا فرق بين سنّي وشيعي في الكويت فكلهم كويتيون».

كم تمنيت من أعماق نفسي ان يصبح كلام الشيخ صباح نهائيا، ولا جملة اعتراضية او اضافية بعده! غير أنه ومع معرفتنا التامة بالدافع النبيل وراء مثل هذه الكلمة، فإن المقاصد النبيلة دائما ما تعرقل بنوايا اخرى... نقيضة لها.

والحق أن واقع التفريق على الاساس الطائفي موجود في كل مكان من عالمنا الاسلامي، خصوصا منطقة الخليج، قبل ان يزدهر الحس الطائفي في العراق المراق على مذابح العرق والدين والسياسة.

منذ القدم، ومنذ لحظة الميلاد الاول للثقافة الاسلامية، لم يستطع عقلاء المسلمين ان يحجزوا سيل الخلاف بعباءة الوفاق، فطمى نهر الخلاف على حقول الوحدة، ورش جدار الجماعة، المتحد اللون، ظاهريا، بطين الخلاف، وألوان التمايزات، التي كان الاحمر القاني سيدها، وفي بعض الاحوال الاصفر المتخفي تحت قشرة المجاملات، او القابع خلف ظهر التعب والحاجة الى التعايش الدنيوي البحت، لا التعايش المبني على الايمان العميق بحق الاختلاف، وبين الامرين فرق كبير، ومتاهات تقطعت فيها انفاس المصلحين، وحارت في سمائها القاتمة انظار الباحثين عن شمس التسامح..

مشاري الذايدي*

من المضحك، فوق كونه من الضار، أن يعتقد انصار كل مذهب أن «الحق» الصراح، والكامل والصافي، هو هم. وأن «كل ما سوى ذاك هو ما لدى الآخر»، وأن جل ما يفعل مع هذا الآخر، إذا تنازل(نا)، هو تركه كما هو، دون إرغامه على الدخول في حظيرة حقي وهداي... بمنطق الاستقواء الاكثري كما ذهب احد شيوخ الاسلاميين الصحويين في السعودية في مقالة له بعنوان: «الأقلية حين تتحكم في الأكثرية».

هو تصور مضحك، لأن الحياة مليئة بالالوان، ومصدر غناها هو هذا التعدد، تصوروا لو أن كل الوجوه متطابقة تماما مع بعضها، أو لو أن الأصوات كلها بصمة واحدة، أو لو أن الرياح كلها تهب من مغرب الشمس او من مشرقها، هل ستطاق الحياة حينها؟ او بالأحرى، هل ستكون حياة حقا؟!

ثم هو تصور ضار، لأن الإكراهات الدينية والطائفية دائما تسفر عن دم وألم وحقد، يبقى ولا يزول، بل ان الدم المسفوح، على مذابح الحروب الدينية، يسري في عروق المذبوح ليبث فيه عنادا اكثر، وتصلبا اعظم، واسطورة أدوم تؤمثل (من الامثولة) من وقع عليه فعل الاكراه، ليصبح مخلصا وشهيدا... وهنا يرتقي البشري التاريخي الى مصاف الالهي الأسطوري..

ما الحل إذن؟ هل نترك الفجوات المذهبية والدينية تفتك بنا، خصوصا ونحن نرى هذا الصعود المرعب للهويات «الفرعية» في عالمنا الاسلامي، هناك دورة اخرى من الذبح على الهوية تدور، وهناك حالات «اصطفاف» طائفي وديني، في العراق، بشكل بارز، وفي لبنان بشكل اكثر تخفيا والتباسا، مع الحديث عن «العقدة الشيعية» او المشكلة الشيعية كما يقول سركيس نعوم في «النهار». وأما في الخليج فلا نعدم من حين لآخر تراشقات مذهبية، وهجائيات من الطراز البدائي.

لا نريد نقش خطوط رمادية مكتئبة على رخام الواقع الجامد، ولكن لا نريد أيضا خداع الذات، ونؤكد في هذا الصدد، على ان المطلوب ليس «اذابة» الهويات في بعضها، وخلق هوية ثقافية متطابقة تعجن الهويات الاخرى المتنوعة في سحناتها او ملامحها ونبراتها وذاكرتها، المطلوب هو: «فض الاشتباك» وترك ميدان الحركة «الغلط»!

نعم العراق يشهد نوعا من الحراك الضار، فيما يخص الفرز الطائفي، وكم أعجبني تعليق قارئ عراقي على مقالة الكاتب في جريدة «الشرق الاوسط» جابر حبيب جابر الذي شخص سبب التصويت الطائفي الذي من المتوقع ان يصب في صندوق الائتلاف الشيعي في العراق، الذي يمثل ملاذ الخائف «الشيعي» المتكور في حضن الهوية الطائفية، كما الشأن مع الناخب السني الطائفي مع قائمة الوفاق.

جابر حبيب قال: «في ظل هذا العنف الاعمى الذي يُجاهر بافتخاره في تنفيذ التفجيرات في المساجد والاسواق لاجتثاث (الروافض)، يصبح ليس من المستغرب أن يجعل ذلك اصطفافهم وتخندقهم (الناخبين الشيعة) مع الائتلاف مصيرا وليس خيارا».

القارئ العراقي، علي الناصري من استراليا، يقول مؤيدا هذا التفسير: «أعطيت صوتي للائتلاف رغم المؤاخذات العديدة التي سجلتها عليه مدفوعا بنفس الأسباب التي أوردتها في المقال؛ وأبرزها شعوري بأنني مستهدف لهويتي وأن دمي مهدور مهما أبديت من تسامح وشفافية».

وفي الضفة الاخرى، لاحظوا نقول الضفة الاخرى!، في هذه الضفة نجد الشارع السني قد خرج في بعقوبة ومدن الغرب السني يهتف لقائمة «الوفاق» رافعا صور عدنان الدليمي وطارق الهاشمي، بعد العزوف الاول للسنة، وبعد الحديث الكثير عن تعذيب وقتل رموز سنية على ايدي عناصر شيعية متطرفة، وبعضها في الحكومة، وبعد فضيحة التعذيب في سجون «الداخلية العراقية» في حكومة الجعفري.

في السعودية، عقدت، وتعقد دوما جولات حوار وطني، كان آخرها في مدينة أبها جنوب السعودية بعنوان «نحن والآخر»، تحاول هذه الحوارات ان تجمع ممثلين عن مكونات المجتمع السعودي الثقافية والاجتماعية، بهدف «ترويض» الشعور الارتيابي من الآخر المذهبي او الطائفي او الجهوي، وهي جولات مفيدة، وربما استطاعت استئناس النافرين، خصوصا مع مشاهد رأينا فيها الشيعي المعمم، حسن الصفار، تحت قبة واحدة مع شيوخ سعوديين سلفيين، ورأينا المرحوم الشيخ محمد علوي مالكي، الصوفي، بجبته المكية، بجوار الشيخ القصيمي بعباءته النجدية، وأبعد من هذا، رأينا سيدة سعودية تنتمي للطائفة الاسماعيلية، وهي تدلي بدلوها في الجولة الاخيرة للحوار الوطني منتقدة ثقافة التمييز الطائفي..

كل هذا الانهمار النقدي، صب دفعة واحدة، وكأنه كان يتنامى خلف سد التسويف وترك الأمر للزمن، طلبا للعافية وايثارا للسلامة، ووضعا للامور في مطبخ الوقت حتى ينضجها! ولكن، ومع كل هذا الحراك الايجابي، هل غادرنا فعلا المعيارية الطائفية؟ ام انها لا زالت تملك نواتها الصلبة وحضورها القوي، رغم نوايا المثقفين الطيبة او كلمات السياسيين المتفائلة؟!

ما اكثر من يجشو أذنك بالحديث عن السماحة والكلام الجميل، من المثقفين او مدعي التنوير من «بعض» الشيوخ، ثم تجدهم في قمة التشنج عند اول اختبار عملي لكلامهم الهلامي عن التسامح، ولذلك فوجود حوار مباشر واختبار عملي للتسامح مفيد. ولكن، ورغم هذه الفائدة العملية، إلا أن المطلوب هو شيء اكثر فعالية ودواما، شيء نستطيع ان نسميه «الهجوم» الشامل على ثقافة الانغلاق والتعصب، هجوم سياسي، وخطاب يحاصر النغمة التقسيمية، وتربية «تحارب» الطائفية، وكراهية الآخر... فقط لأنه آخر.

ودوما تظل المشكلة في «التعريف»، من الارهاب الذي سيظل موضوع تعريفه خالد الخلاف، الى مصطلح «الآخر» الذي لا ندري عن صورته في ذهن كل محاور، فربما يرى البعض ان الآخر هو من يختلف معه في جزئية فقهية مغرقة، وربما يرى فريق ثان أن الاخر هو المسيحي او اليهودي او اللاديني حتى.. كل يقف، بحسب استعداده للتسامح، موقفا محسوبا من الآخر الواقف على الطرف الثاني من البساط.

في هذا السياق عن الهجوم «التربوي» على ثقافة كراهية الآخر وبتر كل الصلات معه، مهما بلغت ضآلتها وعاديتها، تلقيت رسالة بالبريد الالكتروني من (يحيى) وهو قارئ نابه من الرياض، قال فيها معلقا على انتهاء جولة الحوار الوطني السعودي عن الآخر: «اليوم ذهبت لمقابلة مدرس التربية البدنية لبحث شكوى ابني من حرمانه من ممارسة الرياضة في حصة التربية البدنية بحجة انه يرتدي رقما على فانلته. ذهبت وقابلت الاستاذ وقلت له انني لن استغرب اذا لم يرتد ابني (جزمة) الرياضة لتحرمه ولكن ان تحرمه لانه يرتدي رقما فهذا هو الغريب! فقال: ان هذا تعميم صادر من الوزارة قبل ١٥ عاما وأنا أطبقه لأن بعض الطلاب قد يعجب بلاعب (كافر) مثل رونالدو ويضع رقمه على ظهره. فقلت له «إنني وأنا في المرحلة الجامعية كنت متأثرا بريفيلينو (لاعب برازيلي لعب في السبعينات والثمانينات مع نادي الهلال السعودي) وكنت أرتدي رقمه وطبعت صورته على فانيلتي، وها أنا اليوم مسلم مثلما كنت وعلى ما ولدت. وشرحت له أن ما من أحد في أي مجال وفي مرحلة الشباب إلا وهو معجب ومتأثر بآخر كالمتنبي في الشعر وابن تيمية في المذهب وغاندي في الفكر حتى يكبر الشاب وينضج ويبدأ في تكوين شخصيته المستقلة. ولكنه رد علي أن هذه قرارات الوزارة وهو ملتزم بها».

صدقت يا يحيى: أنت أعجبتَ بريفيلينو في شبابك، وربما استمع غيرك للبيتلز، أو هتف آخر لـ(الآخر) الممثل الهندي اميتاب... لكن هذا كان قبل أن تزدهر الهويات الطائفية والمذهبية من جديد، قبل ان نحتاج في أبها الى جلسات طوال من اجل ان نعرف كيف «نتحاور» نتحاور فقط! وقبل ان يتعلق العراقي الجنوبي بأهداب السيد المعمم، والعراقي الغربي بعمامة الشيخ..

تحتاج، يا صاحبي، الى وقت آخر، حتى تعجب بريفيلينو، دون ان تشعر بالخطيئة.. او اقناع المعلم، وحتى هذا الوقت، نحن في أزمة!

*كاتب سعودي